مقال
" الطريقة البوعبدلية
من
الذكر الى الفناء "

بقلم الدكتور: حميدي خيسي

قسم اللغة العربية و آدابها – جامعة الجزائر

إن المهمة شاقة على من يريد استبيان طريقة الشيخ البوعبدلي من خلال"مخطوطاته ككتاب الرسائل لأهل المسائل، وكتاب رسالة الكراس في زوال الشك والالتباس وكتاب حياة النفوس، فضلا عن الجهد المبذول لتصويب تصحيف الناسخ الناتج عن الكتابة المستعجلة،وكأن الشيخ كان يكتب تارة بخط يده فتكاد الأخطاء تنعدم ويصل الأسلوب إلى درجة عالية من التمكن والقوة، وتارة أخرى كأنه كان يملي على مريديه فيكثر التصحيفَ والتحريف، لأنه من غير المعقول أبدا أن تصدر مثل تلك الهنات عن الشيخ وذلك إذا استعرضنا سعة علمه وكثرة استشهاداته بالمتصوفة الكبار كابن عطاء السكندري وأبي الحسن الشاذلي وابن عباد الرندي من المتأخرين، وبالجنيد وأبي سعيد الخراز وبشرالحافى والخواص وعدد كبيرمن الرعيل الأول من المتصوفة.

وكانت كتاباته تنبئ عن حفظ غزير لمقالات الصوفية وكلامهم في حضورهم وغيبتهم، في أحوالهم ومقاماتهم، وفي صحوهم وسكرهم، وهو في ذلك لا يختلف البتة عن القشيري أو السراج الطوسي في الإلمام بهذا العلم اللدن، وما لفت انتباهي أن تصوف الشيخ "العبيد" تصوف سني لا غبار عليه نبراسه الكتاب والسنة ، مبتعدا فيه عن تهويمات الفلاسفة وشطحات الصوفية، ويرد أصول طريقته إلى الطريقة الشاذلية، ويرتقي بها عبر الأقطاب حتى يصل بها إلى الإمام الحسن بن علي رضي الله عنه، وهو يوصي مريديه بالثبات على الطريقة الشاذلية، ليقول في الرسالة السابعة من كتاب الرسائل لأهل الفضائل : وبعد إني أوصيك كل الوصية فعليك بالثبات في طريق الصوفية التي هي الطريقة الشاذلية، وإياك أن يقطعك عنها قاطع سوا ء أكان حسيا أومعنويا، وغاية الشريعة ونهاية الطريقة هوالدهش في كبرياء الله والهيبة لجلاله والأنس لجماله " [1]

وكما هو معلوم فإن الطريقة الشاذلية هي الطريقة التي تأثرت بها معظم الطرق الصوفية في المغرب الإسلامي، وهي تقوم على دعائم ثلاث فيما أرى وهي:

1 - الذكر بالإمعان في ترديد الاسم الأعظم الموجب للفناء في المذكور كثمرة لهذا الذكر.

2 - الزهد في الكرامات التي تعدها الشاذلية، حجابا يحجب القاصد عن الله وجاءت فكرة الزهد في الكرامة كرد فعل على سلوك بعض المتصوفة الذين رأوا في الكرامة غاية، لا حالا زائلة تحل بالعبد حينما يصل إلى درجة الفناء، عن كل ما سوى الله، ولا يبقى في الوجود إلا الواجب الوجود.

وفي ذلك يوصي الشيخ "عدة "، مريديه فيقول : فإياكم والفترة الدائمة.فإنها قاطعة فاقطعوها بالنهوض في الحين، وذكر رب العالمين كما هو مقرر معلوم ولا تلتفتوا لشيء من الواردات حسيات أو معنويات مناما أو يقظات فكل ذلك حجاب على الشهود ولذيذ المناجاة" .[2]

3 - إن غاية المتصوف في الطريقة الشاذلية هي معرفة الله وليس بلبس المرقعات أو التسول أو الاقتيات من فضلات الناس في المزابل كما يفعل بعض متصوفة المشرق ، بل إن غاية الغايات هي معرفة الله .

وعلى الرغم من أن الشيخ عبيد الله عدة بن غلام الله قد التزم بمقاصد هذه الطريقة من حيث سلوك طريق الكتاب والسنة ، إلا أننا نجده في كثير من الأحيان يستخدم الأحاديث القدسية التي يركز عليها القائلون بوحدة الوجود، كحديث القرب ، وحديث "كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني " أو الحديث الذي يجعله محي الدين بن عربى محورا أساسيا من محاور فلسفته في وحدة الوجود وهو الحديث الذي يقول :"كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان" [3] كما أن الشيخ يقول بالحقيقة المحمدية، والإنسان الكامل ، إلى غير ذلك مما يدل على أن الشيخ كان مطلعا على مذاهب القوم وفلسفتهم،ولكنه يعود دائما ليزيل كل التباس أو تهمة خفية قد توجه إليه فيؤكد أنه ممن يقولون بالحقيقة والشريعة سالكا في ذلك مسلك أستاذه أبي الحسن الذي يقول :"... الشريعة على يميني والحقيقة على يساري و أنا أغترف من بحرهما: بحر الشريعة وبحر الحقيقة"[4]

ويضيف الشيخ العبيد ناهجا منهج شيخه: "إذا بلغ الذاكر هذه المقامات، وصفا من جميع الكدرات صار، روحانيا إنسانيا يعطي كل ذي حق حقه .. يعطي الشريعة حقها من العبادات والأعمال الصالحات ، ويعطي الحقيقة حقها كأنه منعزل عن كل ما في الوجود إلا الله ، فلو كان في لظى كان كأنه في نعيم بهذا المقام العظيم فيرى منه به فيه جميع الأرواح الروحانية كأرواح الصالحين والأنبياء والمرسلين ..." [5] وقد يتبادر إلى الذهن أن الشيخ العبيد لا يعتمد إلا على محفوظه من منثور ومنظوم وأنه لا حظ له من علم التصوف إلا التقليد وجانب النظر، إلا أن الحقيقة غير ذلك لأن الشيخ لا يتكلم في معظم ما يقول إلا عن دراية ومعرفة وكشف وذوق فهو يرى أن المتكلم في مثل هذه الأمور بكلام غيره كمن يقاتل بسيف العارية فيقول :" فلا تتكلم في الأمور الغيبية بكلام

غيرك وإن تراه أصدق منك حالا، لأن المتكلم بكلام غيره كالمقاتل بسيف العارية ، ولا علم له بما فيه من عيب فإذا ضرب به انكسر"[6]. ويقول في موضع آخر: إن الوصول إلى أعلى الرتب لم يحصل لنا بتدبر ولا تفكر كما قيل : تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين أو ثمانين سنة ، وإنما حصل لنا ولأحبابنا بمنة الله وكرمه بالعزلة عن الخلق والصيام أياما ، وذكر الله على الدوام" [7]

ولذلك فهو يشعر من أعماق نفسه بأنه مهيأ إلى تحمل رسالة عظيمة، وأن عليه دعوة الخلق لفتح باب القلب يقول الشيخ : ا علم أن المتمكن من فتح القلب حق له أن يدعو الخلق إلى الله ويوصلهم لفتح القلب الذي فتح له ، ولمقام القلب سمى العبيد طريقته هذه البوعبدلية [8].

كما أن الشيخ وقعت منه تنبؤات وظهرت على يديه كرامات بحضرة الأمير عبد القادر حينما استدعاه ليكلفه بخطة القضاء، وعزم على الفرار من هذه المهمة التي كان ينفر الصلحاء والأولياء من القيام بها وتولاها هو على مضض بعد عزم الأمير عليه.

إنه من الصعب الإلمام في هذه المقالة بأبعاد الطريقة ورسم معالمها وذكر أتباعها ، ولكن مادمنا قد سطرنا الهدف من البداية وهو تعريف الناس بمذهب الشيخ وطريقته فقد رأيت أن أركز على محور أساسي تقوم عليه كتابات الشيخ ومن ثم الطريقة كلها ، وأعني به الذكر الموجب للفناء، بالكلام على أنواعه، وفضائله ، والفرق بينه وبين التفكر، وهل هو وسيلة أم غاية من منظور هذه الطريقة ؟ وكيف يؤدي هذا الذكر في النهاية إلى فناء الذاكر في المذكور، وهي الغاية التي حط الرجال فيها رحالهم وكان إليها مآلهم.

لقد ورد في القرأن الكريم آيات كثيرة تتكلم على الذكر وتحض المؤمنين عليه كقوله تعالى: " يا أيها الذين أمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا "[9] وقوله تعالى: " والذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم".

كما وردت أحاديث للنبي (ص) تحض المؤمنين ، على الذكر وتفضله في بعض الأحيان حتى على الصدقة والجهاد كقوله (ص): ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والورق، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا: ماذاك يا رسول الله :قال : ذكرالله تعالى".

ومن هنا يمكن القول : إن الذكر نشأ كالتصوف في مجمله نشأة إسلامية خالصة من خلال تدبر معاني آي القرأن الكريم والاكثار من تلاوته وترديده، ويرى الكثير من

المستشرقين أن الذكر يشبه إلى حد بعيد "الجايا يوغا "، و "النومبوتو البوذية أو" الكوان"، أوصلوات المسيح.

ونحن نقول إن الذكر قد يشبه هذه الطرق على اعتبار أن التجربة الصوفية تجربة عالمية ليست حكرا على أمة دون أمة أو قوم دون آخرين، أو دين دون أخر، وهو الطريقة المثلى لتجاوز وعي الإنسان بذاته وتجاوز عملية التفكير التحليلي الذي يربط الإنسان بعالمه اليومي، ويجعل بينه وبين عالم الحقيقة حجابا من الإرث الاجتماعي والثقافي والرؤية التجزيئية والثنائية للعالم . إلا أن الفارق الكبير الذي يكمن بين تلك الطرق الهندية والبوذية أو القبالة اليهودية، وبين الذكر في الإسلام هو أن تلك الممارسات ليست إلا وسيلة أو طريقة تؤدي بصاحبها إلى الفناء في لمذكور، ومن ثم فهي وسيلة يمكن لأي شخص أن يمارسها بغض النظر عن اعتقاده وقناعاته الدينية، وقد يكون غير مؤمن البتة كمافي البوذية ويمكنه إذا واظب على تلك التقنيات أن يصل إلى الغاية المرجوة وهي"ا لصمادى" أ و " النيرفانا " أو الساتوري " إلى غير ذلك.

بينما الذكر في الإسلام ، عبادة ، وصلاة في حد ذاتها وهو من هذا المنظور، لا يمكن اعتباره مجرد وسيلة تؤدي إلى غاية أساسية هي الفناء في الله، كما لا يمكن اعتباره غاية حتى لا يكون الذكر بديلا عن المذكور، وحينئذ يصبح الذكر حجابا عن الحق كما يرى ذلك الحلاج .

ويمكن أن نستشف أهمية الذكر في الإسلام ودوره في السمو الروحي للإنسان من خلال بعض التعريفات التي وردت بشأنه على لسان بعض المتصوفة الكبار كقول ذي النون المصري: " من ذكر الله تعالى ذكرا على الحقيقة (أي الذكر الكامل ، وهو الاستغراق في المذكور) نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله تعالى عليه كل شيء، وكان له عوضا عن كل شيء" (10) أما محمد الواسطي فإنه يرى في الذكر خروجا عن الغفلة ، والغفلة بمنظور المتصوفة هي ما نحن فيه من حب للدنيا وإقبال على ملذاتها واجتهاد في كسب الرياسة والجاه والمال والغفلة عن ذكر الله : " الذكر خروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف وشدة الحب " (11)

ولذلك قالوا : إن توبة العوام من الذنب وتوبة الخواص من الغفلة وقال آخر: من لم يذق وحشة الغفلة لم يجد طعم أنس الذكر.

وقد اختلف المتصوفة الأوائل في أيهما أفضل الذكر أم الفكر لأن الفكر قد ورد

أيضا في القرآن الكريم في قوله تعالى: "الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا". وقد سئل أبو علي الدقاق وهو من كبار المتصوفة : هل الذكر أتم أم الفكر؟.

فقال: "عندي أن الذكر أتم من الفكر لأن الحق سبحانه يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر،

وما وصف به الحق سبحانه أتم مما اختص به الخلق".

إن الفكر هو عملية استبطان داخلية يقوم بها الفرد بداية من نفسه و المخلوقات، وجميع الممكنات، للوصول إلى المبدع الأول تأملا ونظرا وتبصرا واعتبارا، وهنا يكون العقل هو الرائد للمتفكر أو المتبصر، وهذه الطريقة هي أقرب ما تكون إلى طريقة الفلاسفة أي أن المتفكر يستدل على الله بمخلوقاته وهي الطريقة المؤدية إليه، بينما الذكر شيء أخر تماما.

ومن هنا فإن عملية المفاضلة بين الذكر والفكر لا معنى لها في نظري إذ هما طريقان مختلفان أو إن شئت قل متكاملان لوصول إلى الله، فالذكر رائده الإيمان المبدئي والقناعة الراسخة بخالق يجب الوصول إليه ومشاهدته والفناء فيه.وينبغي على الذاكر ألا يشغل نفسه بأي شيء دنيوي وشرطه إفراغ القلب ومراقبة الخواطر وعدم الانشغال حتى بقراءة القرآن أو الصلاة كما يرى ذلك الإمام الغزالي لأن قراءة القرآن تشغل ذهن الذاكر بتفسير معانيه، فالذكرمن هذا المنطلق هو النسيان أى نسيان المعلوم والمجهول ولا يبقى في ذهن الذاكر سوى الله.

فالذكر هو المفتاح إلى الطريق وهو تلاشي الوعي بالموجودات والغوص إلى أعماق اللاوعي أو ما وراء اللاوعي لتصبح ذات الذاكر وكأنها موجودة معدومة وينعدم الشعور الحسي بتلك الذات. يقول الحلاج:" إذا أراد الله أن يوالي عبدا من عباده فتح عليه باب الذكر، ثم فتح على باب القرب، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجب ، فيريه الفردانية بالمشاهدة،

ثم أدخله دار الفردانية ، ثم كشف عنه الكبرياء و الجمال ، فإذا وقع بصره على الجمال وبقي بلا هو حينئذ صار العبد فانيا وبالحق باقيا، فوقع في حفظه سبحانه، وبرئ من دعاوي نفسه[12].

كما أن الذكر حينما يستبد بقلب الذاكر وجوارحه يدفعه إلى مراقبة الله في حركاته وسكناته بحيث لا يغيب الله عن باله وفكره طرفة وفي هذه الحال، يقول " المحاسبي" : فالزم نفسك وقلبك دوام العلم فينظر إليك في حركتك وسكونك وقيامك وقعودك وذهابك ومجيئك، فإنك بعين الله عز وجل في جميع متقلبك وأنك في قبضته حيث كنت وأن عين الله على قلبك وهو ناظر إلى سرك وعلانيتك، ودوام العلم هو "علم القلب بقرب الرب "وهو العلم الذي يؤدي إلى العظمة، وهو البحر الذي ليس له حد ولا نهاية [13]

واذا كانت فلسفة الفكر والتبصر، والاعتبار، قد شقت لنفسها طريقا وجد أسمى مظهر له في فلسفة وحدة الوجود التي نادى بها ابن عربي وابن سبعين والششتري وعبد الكريم الجيلي وغيرهم.، فإن الذكر قد وجد التربة الخصبة لنموه في مختلف الطرق الصوفية المنتشرة في المشرق الاسلامي ومغربه و لم تشذ الطريقة البوعبدلية عن ذلك ، بل إنها تقوم أساسا على مداومة الذكر فالذكر في هذه الطريقة لا وقت له " الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم" ويحض الشيخ العبيد مريديه على الذكر وألا يفتروا عنه طرفة عين " فاشتغل يا أخي بذكر مولاك في الرخاء والشدة، والعسر، واليسر، والبعد،والقرب، والقبض،والبسط، والذل،والعز، والغيبة، والحضور، والغفلة، واليقظة، والإقبال والادبار، والخلطة، والوحدة والظلمة، والنور، والسفر، والحضر، هكذا ترى عجبا " [14]

ويقتفي الشيخ العبيد طريقة الغزالي وأبي الحسن الشاذلي في الذكر وكثرة التركيز على اسم الله الأعظم لأن هناك طرقا أخرى كتفضيل الذكر بشهادة لا إله إلا الله والبعض يفضلون ذكر كلمة "هو" أما هذه الطريقة فإنها تشدد على ذكر الاسم الأعظم بطريقة معينة يرسمها الشيخ ويحض مريديه على التمسك بها ، لأنها الطريق الوحيد الذي يوصلهم إلى الفناء في المذكور بأيسر سبيل ، وهو نفسه كما يذكر ذلك قد من الله عليه بالمشاهدة دون تفكر. يقول الشيخ : "فعليك بقول الله الله مع تشخيص حروفه الخمسة كأنها مكتوبة ، وتحضر قلبك وتثبته غاية ، ومهما خرج القلب للخوض، رده تشخيصتها ولو ألف مرة أو أكثر من ذلك، حتى ينطبع الاسم في مرآة قلبك فيفنى في نظرك كل ما سوى الله، ويبقى الله فتكون في حضرته الاقدسية".

إن القصد من الذكر هو إماتة الفكر، ومراقبة خواطر النفس والقلب، مهما كانت دقيقة إذ لامجال لتجاوزها إلا بمراقبتها باليقظة والتنبه المستمر، ومواجهتها، دون محاولة

الفرار منها، ويتحول الذكر حينئذ إلى مدرسة أخلاقية لا تهدف إلى الفناء في الله فقط، بل إلى تصفية النفس من أدرانها وشهواتها، وبكثرة الذكر يقول صاحب الطريقة: "تنخرق الحجب وتتمزق الأشياء، لأن الذكر يحرق الشهوات المانعة كما تحرق النار الحطب وإن شئت قلت يحرق الكثافة الظلمانية" .

إن الحياة الحقيقية في منظور المتصوف العارف هي أن يموت ويحيى في كل لحظة وأن يكون ابن وقته لا يشغله ماض أو حاضر أو مستقبل، بل إنه يعيش تلك اللحظة السرمدية الخالدة، وفي تلك اللحظة يعانق المطلق حيث لا وجود للزمان ولا للمكان بل هي لحظة رياضية كما يقول " دافيد بوم " فيها كل شيء وليس فيها شيء، تحيط بالكل ولا يحيطها ولا يحدها رسم

أو مكان أو زمان وليس لها عنوان "ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن" يقول الشيخ مستشهدا بما ورد في الخبر: "لا يدخل على الله إلا من بابين باب الموت الحسية وباب الموت المعنوية وعليها وإليها ينتهي سائر طريقنا التي لا مقام بعدها يرقى إليه...".

إن طرق الذكر ومراحله وكيفيات الجلوس لا تكاد تحصى، وقد تختلف باختلاف الطرق، ولكن أصحاب الطرق يجمعون كلهم على ضرورة الشيخ الذي يتولى أمر المريد في ما يخطر بباله من شاردة وواردة، سواء أكانت من أمر معاده أو معاشه، وأن يكون المريد لشيخه كما يكون الميت بين يدي غساله، يرشده ويسدد خطاه ولا يعصي له أمرا مهما كان، ويذكر لنا الشيخ العبيد قصة غريبة عن هذه الطاعة العمياء للشيخ،وهو أن شيخا من المشايخ اتهم مريدا له قصدا أمام الأمير عبد القادر بجريمة الزنا، فزج به في السجن و لم ينكرعلى شيخه، ولا دفع عن نفسه هذه التهمة، وهو امتحان عسير خرج منه المريد منتصرا، وفي ضرورة الشيخ للمريد يقول العبيد:" أعلم أن كل ما يصل إلى المريد من الأمـــداد والأسرار والأنوار فهو بواسطة الشيخ الرباني سواء كان قبل معرفته أو بعدها لأن الله تعالى غطى أوصافه بأوصافه ونعته بنعته وتولاه في جميع أسراره، غيبة ومشهدا (15)

وأول الذكر عند هؤلاء القوم هو ذكر اللسان بطريقة مخصوصة بعدد لا يحصى من المرات، ولا ينبغي للذاكران يشرد فكره أو يشتغل بخاطر يداهمه وأن يبقىعلى حال واحدة

يتساوى ذلك حال السرور عنده بحال الحزن والغضب لا يأسى على ما فات ولا يفرح بما هو آت،حالة من التوازن النفسي الرائع الذي شقيت البشرية في البحث عنه في أديانها وفلسفاتها.

وحينما يثبت الاسم على أسلة اللسان ، ينتقل إلى مرآة القلب فيدخل المريد في المرحلة الثانية من الذكر، أي أن يصبح ذاكرا بقلبه بعد أن كان ذاكرا بلسانه، يقول الشيخ العبيد:

"وما به إعلامك أن دوام الذكر باللسان بالحضور وتشخيص حروف الاسم إن أمكنك، ولوتعتريك الغفلة ألف مرة: فارجع إلى التشخيص ألف مرة حتى يثبت الاسم أي حروفه في مرآة القلب، فإذا ثبت، يدفع عنك الخواطر، مهما خطر بك خاطر يسبقه الاسم الله فيدفعه ويبقى الله دائما حاضرا .. وهذا ما صح أمره عند العبيد حسا ومعنى إلى أن يصير ذكر القلب جهة في الإنسان فيتحول من مجرد التركيز في اسم المحبوب إلى محبة المحبوب لأن من أحب شيئا أطال ذكره فإذا أطال ذكره علم أن الله جل وعلا أحبه فإذا أحبه غاب عن كل محبوب سواه وثبت في القلب ذكره سواء أكان الذاكر متكلما أو صامتا آكلا أو شاربا أو نائما وهي حال من اليقظة والتنبه والمراقبة تفتح للذاكر أبوابا من الواردات والطوالع واللوائح وتظهر أمامه كما يقول الواصلون أنوار ملونة ولكن لا يجب أن يقف عندها حتى لا تصده عن مبتغاه وتظهر له تهيؤات عديدة فسرها علماء النفس على أنها دليل على تلاشي الحدود الفاصلة بين الوعي واللاوعي. أما حكماء الهند فقد نظروا إلى هذه الأحوال على أنها من فعل الشيطان وبذلك يسمونها "الماكيو" وتأتي الطريقة الشاذلية لكي لا تعير لهذه اللوائح أو الكرامات أي اهتمام بل إنها في نظر أبي الحسن الشاذلي تدفع المتصوف إلى نوع من الغرور والكبرياء الأجوف ، أما الشيخ فإنه يعتبر الكرامات من شهوا ت النفس : " ... ثم صمت القلب عن الذكر وبقي معنى ا لاسم مجردا في القلب فصفت أوتعلق بالأعمال الصالحات " (16)

قال الشيخ زروق في تفسير مداومة القلب لذكر الله " وجه ذلك في الحكمة هو أن القلب له علاقة بالجوارح والتفات إلى ما يبدو فيها ، فإذا ذكر السان التفت إليه القلب فكان تارة معه وتارة غافلا عنه ، ثم بدوام ذكر اللسان يصير القلب مصباحا له باعتبار ألفة الالتفات ولا يزال القلب يلتفت إلى اللسان حتى تنطبع معاني ما يجري على اللسان في

القلب بحيث لا يصح خلو القلب عن تلك الحالة والمعاني وما يرجع إليها عنده فإذا تمكنت هذه الحالة عاد ذكر اللسان ترجمة فقط" [17]

أما المرحلة الثالثة التي يمر بها الذاكر فهي ما يسميه الشيخ بذكر السر وهي تلي ذكر القلب مباشرة ، وذلك بعد أن يبقى اسم الجلالة ثابتا في القلب ثبوتا يقينا . يقول الشيخ: " ثم تحدث محبة عظيمة وهو ذكر الله فيغيب الذاكر عن جميع الأشياء حتى عن نفسه، ومولاه هو الذاكر المذكور، فهذا مقام الفناء وهوالمقام الأعظم".

وهنا ينتقل الذاكر إلى عوالم من الغيب والشهادة ويصبح هو الذاكر والمذكور ولا بد من وقفة هنا لأننا سنتكلم على حالة، الخارج عنها لا يعرفها والقادم منها لا تسعه الإشارة ولا تسعفه العبارة للبوح بها وأعني بهذه الحالة حالة الفناء التي هي ثمرة الذكر..

إن الفناء في مفهومه السني المعتدل ينبع أصلا ويتفرع عن التوحيد فلا وجود على الحقيقة إلا وجود الله وكل شيء هالك إلا وجهه وأن العبد لا تصلح عبوديته إلا إذا كان "سبحا بين يدي الله عز وجل تجري عليه تصاريف تدبيره "، كما يقول ، الجنيد [18] . وأن الله هو الفاعل على الحقيقة فالله هو المحرك الأول، والمدبر الأول، والإنسان حينما يصل إلى الفناء في الله إنما هو عود لأصله، وأن علامة الفاني هي ذهاب حظه من الدنيا والآخرة " بورود ذكر الله تعالى ثم ذهاب حظه من ذكر الله تعالى، عند حظه بذكر الله تعالى له، ثم تفنى رؤية ذكر الله تعالى له، حتى يبقى حظه بالله، ثم ذهاب حظه من الله تعالى برؤية حظه، ثم ذهاب حظه برؤية حظه بفناء الفناء وبقاء البقاء" [19]

والإنسان قبل الذكر وفي غفلته يكون فيما يسميه المتصوفة بالظلمانية أي أنه لا يدرك إلا ذاته ونوازعه وكأنه منفصل عن الوجود وعن الآخرين، فيتوهم ذاته محورا أو مركزا ، وتطغى أنانيته فيطغى، وعليه أن يسعى للتخلص من ظلمانيته، عن طريق الذكر والفناء، وحينئذ يشهد العبد الحق في الموجودات ولا يبدو له إلا الحق بعد فناء ظلمانية الطبع ، بيد أن هذا الظهور الحق في الموجودات ليس ظهورا لذات الحق، تعالى عن ذلك، إنما هو ظهور الاستعداد من إدراك الصوفي الواصل للحق ، وبمعنى آخر فإن الإنسان محجوب عن رؤية الحق والفناء فيه بصفات البشرية، ولا بد له أن يتخلق بالأخلاق الإلهية حتى يصبح فعله من فعله وبصره ... إلى غير ذلك، وفي ذلك يقول الشيخ عدة : "فإذا تجوهرت الروح الذاتية بذكر اللسان للقلب وبذكر القلب للروح كما تقدم تقطعت أوصاف البشرية وظهرت الأوصاف الأزلية التي ورد بشأنها الحديث : لازال عبدي

يتقرب إلي بالنوافل" ويلخص لنا صاحب الرسالة القشيرية مفهومه للفناء بعيدا عن الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وهو حالة من الشعور الطاغي يستولي على العبد فيها سلطان الحقيقة فتنعدم الأغيار فيفنى عن الخلق ويبقى بالحق.

يقول القشيري"من استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينا ولا أثرا، ولا رسما ولا طللا، فقد فني عن الخلق، وبقي بالحق ففناء العبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة بعدم هذه الافعال وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال إحساسه بنفسه وبهم فإذا فني عن الأفعال، والأخلاق والأحوال فلا يجوز أن يكون ما فني عنه من ذلك موجودا [20]

فالفناء بهذا المفهوم هوفناء عن صفات البشرية وبقاء بصفات الحق ولكن المتصوف لا يقف عند هذا الحد من الفناء بل انه يفنى حتى عن صفات الحق لكي تغمره مشاهدة الحق، ثم يفنى حتى عن شهود فنائه أي فناء الفناء فيستغرق في الحق جملة، ولولا العناية الربانية بمنة البقاء لهلك الواصل، وهي الحالة التي يصفها لنا الشيخ عدة أحسن وصف بعد أن تكلم عن مقام المشاهدة والمكاشفة والمعاينة يقول الشيخ : "ثم تحدث محبة عظيمة وهو ذكر السر فيغيب الذاكر عن جميع الأشياء حتى عن نفسه، ومولاه الذاكر والمذكور ... فلا يدري ما يقول وما يقال له فقد سكر سكرا ارتفع عنه القلم كما قال أبو مدين رضي الله عنه "فلا تلم السكران في حال سكره" [21]

إن الغاية العظمى التي ينشدها الشيخ، والثمرة المرجوة من الذكر هي الجلوس في مقام الفناء والبقاء، أو إن شئت فقل الجلوس في مقام الجمع والتفرقة، ولا بد من جمعهما معا، أي بين الفناء والبقاء، فيفنى العارف في الله ويبقى به، ولذلك قيل من جمع فهو زنديق، ومن فرق فهو معطل، فلا بد من الاثنين معا. يقول الشيخ العبيد: " الفناء والبقاء مقامان عظيمان من بلغهما أمن من الشقاء، فلا يخاف بخسا ولا رهقا، وهذه نهاية النهايات وغاية الغايات، ولا بد من جمعهما فلا يغني أحدهما عن الآخر لأن من كان له الفناء والاضمحلال و لم يكرمه الله بالرجوع إلى البقاء يخاف عليه من الفتح الظلماني فيأخذ الباطل و يراه حقا وذلك لفنائه في الانعدام الكلي إلا أن غاب عن إحساسه فيرتفع القلم عنه وديته على قاتله [22]

الهوا هش

هو الشيخ عبيد الله عدة بن غلام الله شيخ الطريقة البوعبدلية ومقر زاويتها تيارت.

(1) الرسائل لأهل الفضائل، ص 42.

(2) الرسائل لاهل المسائل ص 65.

(3) المصدر نفسه، ص 101.

(4) خاتمة الرسائل، ص 11.

(5) المصدر نفسه، ص 11.

(6) المصدر نفسه، ص 19.

(7) اتمة الرسائل، ص 5.

(8) المصدر نفسه، ص 9.

(9) سورة الاحزاب، الآية 41.

(10) الرسالة القشيرية، ص 222.

(11) المصدر نفسه، ص 451.

(12) ختم الأولياء، ص 222.

(13) مخطوط كتاب الرسائل لأهل الفضائل ص 17.

(14) الرسائل لأهل المسائل، ص 11.

(15) خاتمة الرسائل ، ص 11.

(16) المصدر نفسه، ص1.

(17) اللمع للسراج الطوسي ، ص 43.

(18) المصدر نفسه، ص 286.

(19) الرسالة القشيرية، ص 68.

(20) الخاتمة، ص 10.

(21) المصدر نفسه، ص 21.